قضايا الشباب بين العلم والفلسفة

للأستاذ إبراهيم البطراوى

— ٣ —

يزعم سارتر أنه أخذ هذه الفلسفة عن الفيلسوف الألماني المعاصر هيديجر Heidegger . ويجب أن نعرف أن هيديجر هذا كان يلوّح للناس لينظروا إلى فلسفته بصفتها بشيراً ورسولا من لدن الإشتراكية الألمانية . وبعد أن دالت دولة هتلر وأبناء في كل ما وصل إلينا من آرائه تقريباً يتجه اتجاهاً لاهو بالاشتراكي ولا هو بالإلحادي ولا هو بالشيوعي ، وإنما هو أقرب — كل القرب — إلى أن يكون دينياً منه إلى أي شيء آخر . يزاد على هذا أنه يدعو الناس إلى أن ينظروا إلى فلسفته القديمة بهذا المنظار ويؤولوها بما يتفق وهذا المعنى الجديد . فأي شيء بقي إذن للتلميذ وعشاقه ؟

يزعمون أن الوجودية ليست بدعاً وإنما قال بها الفيلسوف الطبيعي باسكال Pascal قبل سنة ١٦٦٢ ، ولكن باسكال هذا حينما أحس وجوده وتعمق هذا الوجود ، وحينما نظر إلى الموجودات الأخرى وتعمق النظر رأى أن يرى الإنسان — وهو أسمى الموجودات طراً — ينغمس في شهواته الحسية الجامحة مهملا عقله فصاح صيحته الخالدة : « عجبي للانسان يهمل عقله الذي به صار وجوده » ! ولما أدمن النظر العميق في الكون ، أدرك خالقه الأعظم سبحانه وآمن به أعمق إيمان ، ثم انصرف ببحثه إلى الدين وبدأ بؤلف كتابه المشهور في الدفاع عن المسيحية فكان أشبه في ذلك بالرجل المتصوف .

فهل فعل سارتر مثل ما فعل ؟ لقد قال إن للسن عند باسكال عذره !!

وعلى نهج باسكال ، أو قريب منه ، سار كيير كجارد Kier Kegard الفيلسوف الدنمركي وكثيرون غيره أخص منهم بالذكر الكاتب المسرحي الفيلسوف جابرييل مارسيل Gabriel Marcel الذي توصل إلى معرفة الله وبين أن أسمى صلة بين الموجودات ما كانت قائمة على المحبة ، وأسمى أنواع المحبة محبة واجب الوجود سبحانه .

لم يبق إذن لاتحاد شركات سارتر وآخرين كما يسمونهم في فرنسا إلا أن يدعوا أنهم وريثو فلسفة نيتشه وأنهم على طريقه ناكبون . فما هي فلسفة نيتشه هذا ؟ وهل الغرض الذي قامت من أجله هذه الفلسفة في ألمانيا هو الغرض الذي تقوم من أجله في فرنسا ؟ وهل يمكن لزاعم أن يزعم أنه حتى هذه النظرية — نظرية نيتشه — كتب لها البقاء ؟

أما من الناحية العلمية فلم يعد لهذه النظرية ظل من الوجود بعد زوال ظروفها وبهذا قضت على نفسها بنفسها .

وأما الغرض الذي قامت من أجله هذه الفلسفة في ألمانيا فهو تخليص الشعب من أزماته النفسية التي حلت به إثر طغيان الروح الرومانتيكية عليه كما قدمنا ، وتخليصه كذلك من سلطان الدين وسيطرة رجاله ، لأن نيتشه كان يظن أنهم أصل كل شر ، وأن الدين علم الناس العبودية للناس ، هذا فضلا عن بث روح الجندية القوية التي لا تعتمد على شيء خارج عن ذاتها والتي لا تبالي بشيء في الشيعية ، لأن موقع ألمانيا الجغرافي يحتم عليها ذلك .

لهذا جعل إنسانه الأعلى Supper Man هو ذلك الذي يحقق لذاته وآلامه وحاجاته ، أو بالمعنى الاصطلاحي (يحقق وجوده) بنفسه وبفعله الإرادي دون خوف أو ترقب لإرادة السموات فهي لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وليس لنا إلا اللحظة التي نحن فيها : إما عشنا عظماء وإلا فلنمت عظماء . ومن السخف أن ينظر الإنسان إلى تالد مجده فهذا شيء قد مات ، ومن الغباء النظر إلى الموتى . لنفعل دائماً بإرادتنا شيئاً جديداً نجدد به وجودنا ، ولنكن أقوياء نطفر قدماً نحو الأمام ، وويل لمن ينظر وراءه أو ينتظر عون الإله . فليست الحياة هي التي تحدد للارادة وجهتها ، وإنما الإرادة هي التي تحدد معنى الحياة ووجهتها .

وبفرض أننا تغاضينا عما في هذه النظرية من التناقض البين فهما يكن من خطئها أو صوابها ، فإنها على كل حال قد ماتت واستنفدت غرضها ووجودها أيضاً في مهدها ألمانيا . فما ذا يقصد هذا الرجل المعاصر بنشر رؤاه في فرنسا ومحاولة نشرها خارج فرنسا ؟ شتان بين ما أراد نيتشه وبين ما يريد « اتحاد الشذوذ » ، فإنهم يهملون الغاية ؛ لأنهم ليسوا لها أكفاء كما أثبتت الحوادث الأخيرة في حرب هتلر ، ويقتنعون بالوسيلة ولا هم لهم إلا الإباحة هتك ستر ما بقي للناس من وشل الحياء .

وفى هذا يقول شاب فرنسى من الوجوديين المتحمسين يصف حال الشبان هناك بعد تفشى هذا المذهب فيهم واعتناقهم له : « كان الرجل البورجوازى يطالب أسرته بأن تتكلم كلاماً مهذباً وتتأدب بآداب حسنة ... ولكن ذلك لم يمنع من إتيان الفاسد سراً » . « فالأجيال الناشئة إذ تنبذ هذه الحياة الزائفة تصر عمداً على كل هذه النقط التى يراد الحيلولة بينها وبينهم فى سنهم الصغيرة ! فهم يقضون كل يومهم فى ضروب التسلية فى السينما وصالات الرقص والحانات ، وهم يعجدون الكسل ويمارسونه ، ويتكلمون كما تتكلم شخصيات سارتر ، لغة مشوبة باللهجة الدارجة Argot مملوءة بالألفاظ التى يأباها الحياء . وليس هذا عندهم مجرد ميل طبيعى ، بل هم يضمون إلى ذلك روح عدم الاكتراث ، وهو روح الحياة التى قد خلصت من الأوهام بما فيها وهم اللذة نفسه ، ويجمعون إلى ذلك أيضاً نظراً منيراً يعرفون به أن (الوجود) هو هذا ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل سوى أن يكون موجوداً » اهـ

ولكم بعد هذا أن تفرقوا بين غاية نيتشه وغاية سارتر إن استطعتم إلى ذلك سبيلا .

***

وأخيراً قولوا لى بربكم مالى أرى الإنسان هكذا يأبى إلا أن يكون عبداً ؟

إنه يريد واهماً أن يتخلص من (عبودية) اختيارية سامية يحتمها العقل السليم ويوجبها الذوق المهذب ؛ وأقصد بها عبودية المدين للدائن ، عبودية المحسن إليه للمحسن ، أستغفر الله ! فما كان مثل هذا عبودية ! وإنما هو الشكر : شكر الموجود لمن أوجده ، شكر المخلوق للخالق .

يخدعه الشيطان ويخدع نفسه بوجوب التخلص من هذه العبودية (الثقيلة البغيضة) ! ثم يخدع نفسه بوجوب تعطيل الفكر من النظر فى آثار رحمة هذا السيد لكى لا يكون فى ذلك منغص لوجوده ، وهذا غاية الإفلاس .

ويخدع المسكين نفسه مرة أخرى فيخيل إليها أنه قد صار — بهذا — موجوداً بعد أن لم يكن كذلك ؛ لأنه — فى زعمه — قد صار (حراً) . وما هذه الحرية لو تبصرناها إلا ارتماء فى هوة أحط دركات العبودية وأقذرها ، وإنها لتتفانى ويستحيل وجودها مع أبسط قواعد التفكير السليم .

أتدرون ماذا ؟ إن الفلسفة حين ارتقت وتقدمت اكتشفت هذا الكشف الباهر وهو أنه إذا كان هنالك إله فهو الشهوة ، وإذا كان لا بد للانسان من عبودية فأنعم بها من معبود ؛ لأنه يكون حينئذ بكامل حريته ، ومهما تسكن فهى على كل حال خير ألف مرة من العبودية للاله ؟!

رحمك الله يا من قلت : « يظن ابن آدم أنه حر وذلك لجهله مصدر المال التى تجره لما يقوم به من عمل »

ولكن ليس لنا أن نعجب فهذه بدعة من بدع العصور الحديثة (الودرن) التى تتوهم الحرية فى هذا الضرب من الجنون الذى يسمونه الوجودية ، وما زالت الليالى حبالى ... !

فواضيعة هذا الشريد المسكين (الإنسان) ! إن أهون ما يقال فيه هو أنه عبد بفطرته . ذلكم هو الرأى المتواضع الذى أرجو أن تسمحوا لى بتقريره وقد بلغنا هذا الموضع من حديثنا .

هذه عقدة الفاجعة الإنسانية التى يعاد تمثيلها اليوم على مسرح المدنية باسم الفلسفة الحديثة .

والحق أننا نكون أسوأ حالا لو انتظرنا منهم غير هذا . وماذا تنتظر من قوم (خليين) يجلسون فى المقاهى وفى المجتمعات والصالات يزجون فراغهم بالمناقشة فى أى شىء : فى أصل الكون وكنه الإله ، ويصفون الميتافيزيقيا وحقيقة الوجود ، وما إلى ذلك من أى شىء يخطر ببالهم ؛ ويحكمون على هذا كله حكم من شاهد واختبر وتثبت ما داموا هم قد اقتنعوا بصحة هذا أو بطلان ذاك ! ماذا تنتظر من هؤلاء القوم أكثر من انتظارنا من جماعة من الصبية نشأوا فى بيت ريفى منعزل : لم يروا أحداً ولم يرهم ولم يختلط بهم أحد ولا يعرفون — فيما عدا بينهم — عن العالم الخارجى شيئاً ؛ ثم تنتظر منهم أن يصفوا لنا حياة الزنج فى مجاهل أفريقيا ، وتاطحات السحاب فى أمريكا ، وطرق الناقشة فى هيئة الأمم المتحدة — وصفاً دقيقاً صحيحاً !

والواقع أنه لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء إلا أن أولئك نسميهم فلاسفة وهؤلاء نسميهم صبية ، كما نطلق على هذا (نيل) وعلى ذاك (ابن المقفع) .

(ينبع) إبراهيم الطراوى